لقاء صحيفة (عكاظ) الموسع مع الأستاذ:

عبد الرحمن السدحان

أجرى الحوار:

د. أيمن محمد حبيب، نائب رئيس التحرير

(الجزء الأول)

١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م

obeikandl.com

obeikandl.com

الجزء الأول

من لقاء (عكاظ)

طفولة صعبة!

•• بدايةً حدثنا عن الطفولة والنشأة؟

• الحديث عن البدايات.. شيق وشاق في آن. فأنا مزيج من ثقافتين ـ كان والدي رحمه الله من نجد وكانت والدتي طيب الله ثراها من عسير.. وهكذا جئت نتاجاً لهاتين الثقافتين. كانت بداياتي الطفولية الأولى في أبها حيث كانت تعيش سيدتي الوالدة رحمها الله.

لم أنعم بفردوس الطفولة ككل الأطفال.. كانت طفولة صعبة..

ذقت مرارتها في المدرسة الابتدائية: حيث كانت تُتّبع أساليب أقل ما يقال عنها إنها بدائية.. تعتمد على القمع الحسّي والمعنوي وسيلةً للتلقين!

وكان المدرس الوحيد في هذا الفصل يعتمد على العصا.. (يوظفها) كل يوم ترغيباً لنا وترهيباً!

obeikandl.com

• وبعد أن وصلت إلى المرحلة الابتدائية، بدأت أقرأ القرآن الكريم وأكتب بعض العبارات، وقررت عندئذ أن أهجر المدرسة فراراً من سطوة المعلم وسوطه.. عدت إلى «ريف» جدي (لأمّي) ذات مساء وأخبرته بأنني لن أعود إلى المدرسة أبداً، وأنني أفضل العمل معه في مزرعته فلاحاً أو راعياً للغنم.. أو مزيجاً من الحرفتين.. وكان لي ما أردت، حيث عملت فلاحاً وراعياً للغنم في آن.. كان عمري في ذلك الوقت لا يتجاوز العاشرة.. وكنت أغدو مع الغنم صباحاً وأروح مساءً لأقرأ ما تيسر لي من القرآن الكريم، ثم أتناول ما أتيح لي من عَشَاء.. قبل أن أخلد إلى النوم حتى الفجر!

وكان سيدي الوالد رحمه الله يعمل تاجراً متنقلاً بين جازان وجدة بعد رحيله من أبها. لذا، آثرت البقاء مع سيدتي الوالدة في عسير طالباً بادئ الأمر، ثم فلاحاً في مزرعة جدي وراعياً لغنمه!

* * *

ثم قررت ذات يوم اللحاق بسيدي الوالد في جازان، شددتُ الرحال إليه بصحبة قافلة من الجِمَال مكونة من خمسة عشر بعيراً، لم نكن نعرف السيارات آنذاك.. نراها

obeikandl.com

فقط من بعيد أو نسمع عنها. وأذكر أن شيخ الجمّالة وكان يدعى (ابن صالح). قد خصّص لي جملاً، كنت أستلقي على ظهر ذلك الجمل مساءً موثوقاً بالحبال بين كيسين مليئين بالذرة أو القمح خشيةَ السقوط.. وكنا نسير ليلاً حتى الفجر! كان الفصل صيفاً، ولذا، كنا نمخر عباب الليل على ظهور الجمال، وننفق النهار بين الراحة وتحضير الطعام وشيءٍ من النوم حتى الأصيل، ثم نستأنف الرحيل من جديد. كنت سعيداً بهذه الرحلة استمتعت خلالها بأهازيج الجمّالة وقصصهم، لكنها لم تخل من لحظات عصيبة لوعورة الطريق واضطرارنا للسير على الأقدام مرة أو مرتين عبر معابر الجبال الملتوية وصولاً إلى سهل تهامة!

* * *

استغرقتْ مسيرتنا ـ يضيف السدحان ـ من أبها إلى جازان ستة أيام.. وهناك مكثت سبعة أشهر أو نحوها بجوار سيدي الوالد، دخلت خلالها المدرسة الابتدائية ثم عدت إلى أبها لأستأنف الدراسة فيها من جديد بعد أن أعياني الصبرُ على التعايش مع حرارة الجو ورطوبته في جازان! كنت حينئذ في السنة الثانية الابتدائية.. وكانت تربطني بجدي رحمه الله علاقة حميمة.. وكان يحبني حباً جماً.. ولذا كنت سعيداً

بهذه العودة إلى مواقع الطفولة الأولى، بعد أن أمضيت فترة من الزمن في كنف والدي بجازان، وكانت تلك الفترة، رغم قصرها حافلة بألوان التغيير!

* * *

قصة السقوط من على ظهر الحمار

•• هل هناك حادثة معينة لازالت عالقة بذاكرتكم منذ الطفولة؟

• هناك واقعة كتبتُ عنها منذ مدة وهي قصة سقوطي من على ظهر حمار جدي الذي سار بي في غفلةٍ منّي ومن جدي رحمه الله وهو الذي لم يكن ليدعني وحيداً على ظهر الحمار لولا إصرار صديق له على إيقافه والتحدث معه في شأن! وقد أثار دهشةَ كثيرٍ من الناس آنذاك مشْهدُ طفلٍ صغير نحيل العود يمتطي حماراً جباراً.. لكن حدث ما لم يكن متوقّعاً حين مرّت فجأة أُنثىً من جنسه وكانت تطلق صوتاً غريباً أثار شجناً خاصاً لدى الحمار (المتصابي)، فراح يتابعها بشَرَهٍ وشدّة، بالرغم من سوطي وصراخي المتواصل.. و(توسلاتي) له بالكفّ عن ذلك الطيش، إلاّ أن الحمار ظل يركض خلف أنثاه بسرعة أفقدتني زمامَ السيطرة عليه، فاختلّ توازني وسقطتُ

obeikandl.com

مغشياً عليّ، وجاءت راعيةُ غنم حنون فحملتني على ظهرها إلى بيت جدي.. وعندما أفقتُ كانت يدي اليسرى مكسورةً كسراً مضاعفاً، وكان وجْهَا جدي وأمي يسيلان دموعاً!

* * *

محاسن القسوة

•• البعد عن الوالد والوالدة هل كان له أثر مرير دفعك إلى تصرفات من هذا القبيل ومصارعة الحياة بمفردك؟

• أنا مدين للّه بكل شيء ثم لقسوة الحياة التي شكّلت طفولتي منذ البداية، فلولا هذه القسوة ما استطعت أن أنمّي نفسي صغيراً وأبنيها كبيراً. بشفافية الكبار، مما جعلني أتلمس الطريق مبكراً، وأحاول أن أنجز أي شيء بنجاح مهما كان ذلك الإنجاز متواضعاً.. وكان ذلك مقروناً بوجدانية خاصة غرست في أعماقي الشعور بالثقة والاعتماد على اللّه تعالى.. وقد منحني ذلك الإحساس المرهف وتلك الاستقلالية قوة على مكابدة التحديات التي واجهتني، وترجمت ذلك عبر التفوّق بحمد اللّه في الدراسة ورافقني ذلك التفوق في كل المراحل التعليمية من الابتدائية حتى الجامعة!

الرحيل إلى الطائف

•• ماذا عن قصة الرحيل إلى الطائف؟

• أفكّر في كتابة هذه القصة وسواها يوماً عبر كتاب بعنوان «محطات في قافلة العمر».

وهي ليست سيرة ذاتية على النحو المألوف بقدر ما هي طرح ذاتي لمواقف لا يخلو أغلبها من العبرة. وهي، إلى جانب ذلك منظومة من الرُّؤى قد يستفيد منها الجيل الحاضر.

مرةً أخرى.. زارني الهاجس القديم، (لماذا لا ألتحق بوالدي وأعيش معه؟)

وقررت الرحيلَ إلى الطائف حيث يقيم والدي بعد أن توصلت مع نفسي إلى قرار بألّا أعكّر صفوَ سعادة سيدتي الوالدة في عشها الزوجي الجديد. لكن كيف السبيل إلى الطائف؟ (سألت نفسي).

كان سؤالاً عسيراً.. وكان الردّ العملي أكثرَ عُسْراً!

في ذلك الحين لم تكن وسائل الاتصال والمواصلات متوفرة وكانت هناك شاحنة بريد (مصندق) تنقل البريد من وإلى

obeikandi.com

الطائف مرة أو مرتين في الشهر.. استشرت سيدتي الوالدة في الأمر، كانت في البداية مترددة في الموافقة.. لأنني كنت صغيراً جداً ولابد أن هناك أسئلة كثيرة دارت في ذهنها.. كيف أذهب إلى مدينة كالطائف وماذا ينتظرني هناك؟!

* * *

قلت لها رحمها اللّه: إذا أذنتِ لي فإنني أنوي الذهابَ إلى حيث يقيم والدي، أمّا كيف، فلم يكن أمامي من خيار سوى سيارة البريد، ويشاء اللّه أن يكون خالي الجنديّ سعد، رحمه اللّه، مكلفاً بإعادة جندي هارب من الخدمة العسكرية إلى الطائف وفي نفس سيارة البريد التي كنت أخطط للسفر فيها، وأُخبرُ خالي برغبتي في السفر وبموافقة سيدتي الوالدة على الرحيل إلى الطائف، فيرحب بالفكرة دون تردد، مما أفرحني كثيراً.. لكن حدث قبل الرحلة ما لم أكن أتوقعه، فقد ذهبت بمتاعي الذي يتكون من بطانية صغيرة وثوب قديم وغترة لأضعه في سيارة البريد حتى يتسنى لي حجز مكان مناسب (بجور الشباك) داخل الصندوق. غير أن الجندي المكلف بحراسة السيارة نهرني بقسوة قائلاً: (ما هذا العبث؟) فقلت له ببراءة: لقد أُدرج اسمي في قائمة الركاب وأريد السفر إلى الطائف مع خالي بحثاً عن والدي. فقال لي بلهجة أشدّ حدّةً:

(ممنوع صعود الأطفال إلى هذه السيارة) شعرت حينها بالإحباط وكانت سيدتي الوالدة ترافقني.. وكانت رحمها الله يتنازعها القلق بين الرغبة في إرضائي بالسفر نزولاً عند إرادتي والرفض لتلك الفكرة تجسيداً لعاطفتها السامية، وأحسب أنها رحمها الله في تلك اللحظة كانت تتمنى في صمت حدوث شيء يعيق الرحلة أو يردعني عنها!

* * *

أمر الإركاب

هنا ـ يضيف السدحان ـ فكرت في وسيلة أتغلب بها على هذا الجندي.. ذهبت إلى أحد أصدقاء سيدي الوالد من تجار مدينة أبها، وهو الشيخ أحمد بن عامر أبو مسمار.. (رحمه الله) وتوسلت إليه أن يكتب لي رسالة إلى أمير المنطقة معالي الأمير تركي ابن أحمد السديري رحمه الله، فحاول صديق الوالد أن ينصحني بالعدول عن فكرة الرحيل إلى الطائف وحيداً،.. لكن.. أمام إصراري كتب لي الرسالة وذهبت بها فرحاً إلى مقر إقامة الأمير، وكان رحمه الله يقطن المبنى الذي أصبح الآن متحفاً، فاستأذنت الجنود بالدخول، فأذنوا لي وحدي وبقيت سيدتي الوالدة خارج المبنى وهي تغالب

دمعَها، ودخلت على الأمير في الدور الثاني من ذلك القصر العتيق، وكان رحمه الله يتصدر مجلساً كبيراً ظنَنْتُه لفرط روعي ملعباً لكرة القدم!

تابعتُ السير حتى وصلت إلى صدر المجلس حيث يجلس الأمير وسلمته الرسالة فقرأها وضحك ضحكة رقيقة مشرقةً بالحنان، ثم سألني: هل أنت ابن فلان؟ فقلت في ثقة: (نعم) وكان يعرف سيدي الوالد، فأمر الكاتب أن يحرر لي تصريحاً بالإركاب.. وكان هذا (أول أمر إركاب) في حياتي..أخذت الورقة وأنا أكاد أحلق من الفرح. نسيت في تلك اللحظة دموعَ سيدتي الوالدة وتوسلات بعض ذوي القربى لي بالعدول عن الرحيل! وذهبت إلى سيارة البريد حاملاً متاعي ووضعت الورقة أمام عيني الجندي في تحدٍّ ظاهر، وهو الذي نهرني أول مرة! ولم أخفِ في تلك اللحظة شماتتي به ومشاعر الانتصار عليه!

* * *

تحركت السيارة بعد عصر يوم رمضاني جميل وكانت مكتظةً بالغرباء، عدا خالي الجندي وبرفقته الجندي الهارب المكبّل بالحديد.. وكانت هناك فتاة شابة مسجّاة في جزء من

السيارة قيل يومئذ إنها مصابة بطلق ناري، ولم يجد أهلها لها علاجاً في أبها.. فكان لابد من نقلها إلى الطائف عبر تلك الرحلة الشاقة التي كانت تستغرق من أربعة إلى خمسة أيام، ما لم يصبها عطل، وعجبت لها ولنفسي.. إحدانا هارب من شقاء المرض.. والآخر هارب إلى عناء البحث عن وليّ يهمه أمره!

* * *

ووصلت إلى الطائف التي بهرتني حتى كدت أنسى مهمة البحث عن مقر سيدي الوالد، أمضيت يومين في قشلة العسكر وسط الطائف مرافقاً لخالي بعد أن سلّم الجندي الهارب، ثم قررت أن أستأنف رحلة البحث المضنية عن الوالد حيث قيل إنه يقيم مع الشيخ عبد الرحمن السبيعي رحمهما الله. وكانت تربطهما آصرة قربى.. لكننا لم نكن نعرف مقر إقامة الشيخ السبيعي.. وأخيراً اهتدينا إلى مقر خالٍ لي آخر اسمه علي، رحمه الله، وكان يعمل بمنزل معالي الشيخ صالح العباد طيب الله ثراه، هنا ودعت خالي الجندي الذي قفل عائداً إلى أبها وبقيت مع خالي الآخر معتزماً أن أبذل كل الجهد حتى أعثر على والدي.

obeikandl.com

في دار الشيخ العبّاد

•• هل خالجك شعور بفقدان الأمل في العثور على الوالد.. وهل كنت تشعر بالضياع وأن آمالك المستقبلية قد تذهب هباء؟

• كان لديّ شعور عميق بأنني سأعثر يوماً ما على والدي.. وبقيت في منزل الشيخ العباد رحمه الله، مكرماً معززاً وقوبلت من لدن جميع أفراد أسرته الكريمة باحتفاء جميل كاد ينسيني مهمة البحث عن سيدي الوالد. وكان الخال علي رحمه الله يعمل سائقاً لدى أسرة الشيخ صالح العباد، وكنت أرافق نجليه يوسف وعبد الله، عصر كل يوم إلى البر القريب لنمارس لعب الكرة التي تعاملت معها لأول مرة بإحساس غريب أيقظ في خاطري شعوراً طفولياً مترعاً بالمرح، وكانت ليلة السعد ليلة العيد حين حمل إلي الخال علي رحمه الله نبأ اللقاء بسيدي الوالد في أحد أسواق الطائف. وجاءني الخال يحمل البشرى، ليصطحبني للقاء أبي والسلام عليه. ودخلت حياتي بعد ذلك منعطفاً جديداً!

• والحق أنني في تلك اللحظة ـ يستطرد السدحان ـ كنت متردداً في مرافقة الوالد وهجر مظاهر السعادة التي غمرتني

بها في سخاء أسرة الشيخ العباد، رحمه الله إذ كنت في كنفها مدللاً، لكن اللقاء مع أبي كان الأجمل!

* * *

•• لكن حتى هذه المرحلة لم تفكر في العودة إلى الدراسة؟

• بقيت مع والدي مدة قصيرة في الطائف لم تتح لي خلالها فرصة العودة إلى الدراسة، ثم انتقلنا إلى مكة المكرمة وبقينا هناك أشهراً وبسبب عدم الاستقرار لم أستطع أن ألتحق بالدراسة.. ثم ألقينا عصا الترحال في مدينة جدة.. حيث استقر بنا المقام في بيت مستأجر، في باب مكة.. وكان بيتاً جميلاً، ثم التحقت بمدرسة الفلاح الابتدائية في السنة الثالثة.. وكان يشرف على الفصل مدرس واحد لا أذكر من اسمه الآن إلا (العم مسعود) رحمه الله، وكان يدرّسنا كل المواد وهي القرآن الكريم والفقه، والتوحيد والحساب والمطالعة.. كان قاسياً، لكنني تجاوزت بوابة قسوته بنجاح إلى السنة الرابعة، وفي منتصف العام الدراسي قرر أبي الانتقال بنا إلى جازان حيث لم يطلّ بنا المقام هناك فعدنا إلى جدة.. وبالرغم من أن المدة في جازان كانت قصيرة إلاّ أنني التحقت بالدراسة في إحدى مدارسها لمدة قصيرة أيضاً.

obeikandi.com

•• هل كنت مندمجاً مع الأسرة؟

• نعم.. كان المرحوم الوالد شمساً تشرق بالدفء في حياة كل فرد منا، ذكراً أو أنثى. وفي جدة قرر والدي إيفادي وأخي مصطفى إلى لبنان.. وكانت هذه التجربة منعطفاً آخر مهماً في حياتي.. وربما كانت هي الولادة الثانية.. وفي لبنان وتحديداً في مدينة زحلة وسط البقاع التحقت بمدرسة أجنبية يديرها مزيج من اللبنانيين والإيرلنديين ولذا، كانت الإنكليزية هي لغة القسم الداخلي معظم الأوقات ولك أن تتصوّر صعوبةَ التفاهم مع الأشقاء اللبنانيين بلهجتهم المحلية من لدن صبيّ صغير تُخالطُ لغتَه مفرداتُ شعبيه من عسير والحجاز وجازان، فما بالك إذا كان هذا التفاهم مطلوباً بالإنكليزية مع أناس لا يتقنون سواها! في الوقت الذي لم نكن، أخي وأنا، نفقه منها حرفاً! وقد أُلحِقْنا بتلك المدرسة اجتهاداً من لدن صديق لأبي لبناني الأَصل كان يعمل متعاقداً في مكتبه بجدة. وربّما ظنّ الرجل إجتهاداً أن وجودنا في ذلك الوسط (المتفرنج) سيحقِق لنا النقلة الثقافية الموعودة!

* * *

•• يبدو أن والدكم كان مستنيراً؟

• كان رحمه اللّه بالفعل مستنيراً بالرغم من أنه اكتفى بالمراحل الأولى من الدراسة حتى ختم القرآن قراءةً وفكّ عقدة الحرف وكان عصامياً في تعليمه حتى آخر يوم في حياته. قرأ في وقت لاحق للعقاد وغيره من أساطين الفكر، قديمه وحديثه، كان يحاول إغرائي بالعقاد، فلم يفلح، وحاولت بدوري إغراءَه بطه حسين فلم أوفق! كنت شغوفاً بطه حسين والمنفلوطي والزيات، وكان رحمه اللّه مأخوذاً بالعقاد وأحمد زكي والرافعي، وصاحب الأغاني والجاحظ وغيرهم! وكان يقرأ التاريخ بشغف.. وكان مبدعاً في رواية التاريخ، يأسُر مستمعيه بذاكرته وأسلوب روايته! وأعتقد أنه لو كتب سيرته الذاتية ـ رحمه اللّه ـ سواءً تلك التي صنع أحداثها بنفسه أو التي عاصر أبطالها، لاكتسب شهرة واسعة.. وقد حاولت أن أقنعه مرات بأن يسجل تجربته بصوته، ثم تفرّع في حديث مكتوب فكان رده دائماً يراوح بين الرفض المبطّن والتسويف الصريح!

•• إذاً لم توثق أنت شيئاً من تجربة حياته؟

• لم تمكنني الظروف من ذلك.. وكان إهمالاً مني وقصوراً منه، وكان يقول لي أحياناً كلّما كررت عليه السؤال: سيأتي

الوقت المناسب وعندئذٍ سأكتبها! ولكن وافاه الأجلُ المحتوم قبل أن يفعل ذلك.. لذلك لا أتردّد مطلقاً في القول إن والدي رحمه الله كان مدرسةً، وكان جاداً ومثالياً في تربيته، وعندما أقارن بدايات طفولتي مع طفولته وجزء من صدر شبابه أكتشف أنه الآخر عاش حياة مستقلة لم تخلُ من شقاء! فمنْبتُه الأصلي مدينة شقراء، لكنه هجرها فترةً وذهب إلى الأحساء طلباً للعلم والتجربة، وأتقن فيها مبادئَ الكتابة والحساب، ثم عاد إلى نجد ومنها بدأ يشق طريقه بنفسه وهو في العقد الثاني من عمره عبر مفازات التجارة والانتقال المحفوف بالمخاطر من مكان إلى آخر، ولذلك تعلمت منه رحمه الله الكثير..

تعلمت منه الصبر، والاعتماد على النفس بعد الله والإصرار على بلوغ المراد قدر المستطاع!

* * *

(الثكنة) الإيرلندية

•• الإعداد لرحلة لبنان مَا صَاحَبَه من تغير في قناعاتك، ومفاهيمك ومحاولة استيعابك لهذا العام الجديد الذي أنت مقبل عليه؟

• كانت رحلتي الأولى إلى لبنان منذ بدايتها حتى نهايتها حلماً جميلاً، بالرغم ممّا تخلّلها من مواقفَ بدْءاً بتعلم اللغة الإنكليزية أول مرة، ثم التعامل مع المدرسة التي كانت تدير قسمَها الداخلي عائلةٌ إيرلندية شديدةُ المراس، عنيدةُ الطبع، عنيفة الملاحظة، وكان ربُّ هذه الأسرة ضخمَ الجثة أصلعَ الرأس، وكان مشهده خلال الأشهر الأولى وهو مقبل أو مدبر يفجّر الرعب في نفسي، فألوذ بالدمع في صمت، لكن الأيام التالية، أرغمتني على التطبّع وآخت بين صلابته ونفسي الهشة! فتحول جفولي منه ومن أسرته إلى أُلفة ومحبة، وتعلمت بمساعدته اللغة الإنكليزية بالقدر الذي مكنّني من إقامة جسور تفاهم مناسب مع الجميع.

* * *

وبوجه عام، فقد كانت الدراسة في لبنان تجربة حيّة تَعلمت منها الكثير.. ومنحتني فرصة الانصهار مع مزيج

obeikandi.com

من الثقافات، فقد كان بيننا الإيراني والسوري واللبناني والأردني والآشوري والأرمني، وكان أخي مصطفى وأنا، الوحيدِين من جزيرة العرب! وكان الفصل الواحد يضم عيّنات من البنين والبنات، شعرتُ باديءَ الأمر إزاء ذلك الموقف بهاجس غريب، ثم تحوّل الهاجسُ إلى إحساس متّزن يقوم على التسليم بالواقع والاحترام له!

قوة مساندة

•• ألا تعتقد أن المرأة في أبها تستحق وقفة وأنها تشكل معادلاً خاصاً في تجربتنا الاجتماعية؟

• المرأة في البادية هي المرأة الموجودة حالياً في المدينة بعد أن عايشت ظروفاً معينة.. لكن ما شهدته شخصياً في أبها هو أن المرأة كانت عنصراً مكملاً لجهد الرجل.. وجزءاً لا يتجزأ من معادلة البقاء اليومي. كانت ترعى الغنم وتعمل في المزرعة وتجلب الماء من البئر والحطب من الجبل والسهل وتنظف المنزل وتغسل الثياب وتذهب إلى السوق تبيع أو تشتري وتعد الطعام وكانت تتزوج وتنجب وترضع وتربي، وتشارك في أفراح الأسر وأتراحها! واليوم.. تبدلت كثير من أحوال المرأة السعودية في حواضر المدن وقليل في قراها. فُوِّضت الخادمةُ

الأجنبيةُ معظم مهام الأمس، وأصبح (دخول المطبخ) عند البعض مأخذاً اجتماعيا.

* * *

•• ألا تعتقد أن نظرة الرجل إلى دور المرأة كانت أكثر تطوراً مما هي عليه ولاسيما داخل المدن خلال حقب تاريخية مختلفة أم كان ذلك بدافع الحاجة وقلة الأيدي العاملة؟

• كانت العمالة يسيرة ميسرة قوامها أهلُ الدار، بدءاً بشيخها، ومروراً بشبابها، وانتهاءاً بنسائها وأطفالها، كانت العمالة، ناعمها وخشنها، تعمل جنباً إلى جنب بمحبة وتضحية وصبر جميل. وحين كنت طفلاً في مزرعة جدي رحمه اللّه، كان من بين مهامي (الفلاحية) طردُ الطير حماية للمحصول الموسمي بُرّاً وشعيراً وذرة وفاكهة، من عبث العصافير الجائعة، حتى الأفراح، كان أهل الريف رجالاً ونساءً وأطفالاً يمارسون طقوسها في الهواء الطلق أو داخل البيوت في عفة وطهر وجمال.

obeikandl.com

•• معالي الأستاذ عبد الرحمن تملك ذائقة أنيقة وموهبة تخيلية جميلة ويبدو أنها ساعدتك منذ وقت مبكر في اختـزان الكثير من الصور التي تستحضرها الآن ما هي العوامل التي ساهمت في تكوين هذه الذائقة؟

• هي مجموعة عوامل مختلفة تشكّلت منها معادلة معقدة اشترك في صياغتها عدد من الأشخاص الذين وضعتني الحياة أمامهم بدءاً بوالدي ووالدتي فجدي مروراً بالآخرين في المدرسة والجامعة والعمل ممن عاصرتهم على نحو أو آخر، كل من هؤلاء لاشك أسهم بشكل أو بآخر في تشكيل هذه الشخصية. وكما ذكرت في بداية هذا الحديث فإن الصعوبة التي واجهتها في مطلع حياتي غرست في أعماقي شفافيةً وجدانيةً جعلتني أتمرّد بقوة على غموض الهوية وغياب الهدف في حياتي.

* * *

حاولتُ أن أنتزعَ هذه الهوية خارج جدران الصمت وأتعامل معها مباشرةً أصنع منها شيئاً ذا بال، كان لديّ إحساس بأنني لابد أن أكوّنَ من نفسي شيئاً أنتفع به وأنفع، ولذا،

obeikandl.com

نلت الشهادة الابتدائية في المدارس النموذجية بجدة عام ١٣٧٥هـ بتفوق، وكان ترتيبي الثالث على مستوى المملكة كما قيل لي يومئذ، ثم انتقلت مع الأسرة إلى الرياض والتحقت بالكفاءة وحصلت على الشهادة المتوسطة بتفوق وكنت الأول على مستوى المملكة. ثم أكملت مشواري في الدراسة الثانوية وكنت أيضاً الأول على مستوى المملكة (القسم الأدبيّ) وتابعت مشوار التفوق عبر دراستي الجامعية، والحمد للّه أولاً وآخرَ، وعندما أعود بمخيلتي إلى تلك الأشواط في حياتي، أرى أنه كان هناك سباق بين شخصيتين: شخصيةُ طفل البيت الخدوم القنوع المطيع لإرادة والده الراغب في رضاه.. لم يكن لديّ مجال للّهو أو أصدقاء أصطفيهم إلاّ القليل ضمن إطار المدرسة فقط. أما الشخصية الأخرى فقد كانت تتجسد داخل جدران المدرسة، أمارسُ من خلالها صخب التلاحم الاجتماعي والأدبي مع الجميع!

* * *

وأذكر أنني خلال سنتي النهائية في ابتدائية جدة حررت صحيفة حائط.. اسمها (صوت الطالب) كنت محررها ومنفذها ورئيس تحريرها.. وخطاطها. كانت تضم مقدمةً

وأخباراً وألغازاً ومسابقات وظيفية ومازلت محتفظاً بأصلها حتى الآن!

وعندما ذهبت إلى أمريكا استطعت عبر السنين والتجربة وتنوع مصادر المعرفة ونضج التآلف الاجتماعي أن أردم الفجوة بين الشخصيتين.

* * *

ولادة ثانية

•• حبذا لو توقفنا عند الولادة الثانية وانعكاساتها على تنمية الشفافية وذائقة الجمال؟

• تجربتي في لبنان في تلك السنّ المبكرة وتحت مظلة (الرقابة الإيرلندية) الصارمة التي كانت تفوق رقابة والدي في البيت، منحتني قدراً كبيراً من تمرّد النفس وشفافية الوجدان! كنتُ حقيقةً أعيش حالة رقابة دائمة وكأنني داخل ثكنة عسكرية.. وتلك سمةٌ أضافت إلى حياتي بعداً آخر من الجدية. ولذا يتهمني بعض أصدقائي ومعارفي بأنني أتعامل مع الأمور أحياناً بجدية أكثر مما يوجبه الأمر.

كان وجودي في لبنان في تلك السن الصغيرة (صدمةً حضارية) بمقاييس كثيرة، لم يكن من اليُسّر لي أن أتكيف

مع من حولي بمرجعية متواضعة من نمطية الحياة ورتابتها بل وشقائها، على نحو ما سلف. لقد منحتني تجربة لبنان رغم قصر مداها الزمني فرصة اكتشاف نفسي وأمور عديدة أخرى، لم أكن أعرفها من قبل. وكانت أجمل آثار تلك الصدمة الحضارية لقائي عن بعد مع (أرزة) لبنان الخالدة فيروز عبر مسافات صوتها الجميل ولا أغالي إذا قلت إنني تعرّفتُ على جمال لبنان وعرفته من خلال نغمها!.

* * *

رسالة دامعة

•• هل كانت لكم اهتمامات أدبية أو كتابية قبل أن تصدر تلك الصحيفة المدرسية؟

• كنتُ شغوفاً بالقراءة.. وتجربتي القصيرة مع الكرة في الطائف لم تصرفني عنها وليس لدي حتى اليوم فريق مفضّل عدا المنتخب. أما الكتابة فقد كانت بدايتها إبّان الفترة التي كنت أعمل خلالها راعياً للغنم وكنت أسلّي نفسي بقراءة القرآن الكريم.. وكنتُ آنئذٍ أكتب رسائل إلى نفسي بلغة طفولية ثم أرد عليها، قبل أن أمزقها.

* * *

obeikandi.com

ومن الأمور الطريفة التي لا أنساها أن صديقة لوالدتي طيب اللّه ثراها طلبت مني أن أكتب رسالة لزوجها المجنّد بعيداً عنها، وباشرتُ المهمة، بدأت أكتب مقدمةَ الرسالة، ثم إذ بالمرأة تبكي، وتغرق في البكاء، متمتمة باسم زوجها، فوضعتُ القلمَ جانباً وقلت لها: سيدتي.. إمّا أن تبكي الآن وبعدها أكتب الرسالة وإما أن أكتبَ الرسالة الآن وبعدها إبكِ ما شئتِ!

فضحكت.. رغماً عنها وأكملنا الرسالة ثم منحتني أربعة قروش، وكانت تلك المكافأة أول أجر في حياتي!

* * *

وفي الرياض بدأت علاقتي بالحرف الجميل مع صحيفة (القصيم) وكنت يومئذ في المرحلة الثانوية.. عندما اقترح عليّ صديق لسيدي الوالد هو الأديب خالد محمد خليفة (رحمه اللّه) أن أكتب في صحيفة (القصيم) كان الاقتراح مفاجأة جميلة لم أتوقعها.. لعلّه لمس استعداداً أو موهبة ما لدي.. ترددت في تلبية الطلب.. ولم يكن والدي متحمساً للفكرة رغم أنه كان يحثّني على القراءة.. ومع ذلك فقد كتبت مقالاً سلمته للأستاذ خالد الخليفة.. وكان انتقاداً

لأمانة مدينة الرياض بسبب المياه السائبة في شوارع الملز فنشرت صحيفة (القصيم) المقال.. وعندما قرأه سيدي الوالد، علق قائلاً: (هذا ما كنتُ أخشَاه!). لكنه لم يعترض أو ينهرني عن الاستمرار في الكتابة.

وقد ذيّل رئيسُ تحرير (القصيم) مقالي البِكْر بالقول إن كلماتي تنبئ عن موهبة مبكرة، وهو ما أشعل في خاطري الرغبةَ في الكتابة، ثم بدأت أكتب بشكل متقطع قصصاً تاريخية، ومقالات اجتماعيةً إلى أن جاء اليوم الذي لا أنساه عندما اعتمدني رئيس تحرير صحيفة (القصيم) طيب الذكر، الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله التويجري متعاوناً مع الجريدة وكلفني بالإشراف على (صفحة الشباب) أستقبلُ المقالات وأكتب المقدمة وأرد على بعض القراء الشباب ونحو ذلك. وفي الوقت نفسه، راودني حلم أن أكتب في صحيفة (اليمامة) قبل أن تتحول إلى مجلة. وأذكر أنني كتبت مقالاً أنتقد فيه توافد العمالة الأجنبية إلى المملكة وتكاثرها ومنافستها للعمالة السعودية.. ثم ذهبت إلى مكتب رئيس تحرير الصحيفة، علامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر حفظه الله، وبعد أن قرأ المقال التفت إليّ بوجه عابس وقال: الناس يدعون الآن إلى ما يجمع العرب ويوحد كلمتهم وأنت

بهذا المقال تزرع الفرقة بينهم. ثم سلمني المقال معتذراً عن نشره.

* * *

ثم حلّت أزمة التهديدات العراقية من قبل عبد الكريم قاسم ضد جاره الكويت وما تبع ذلك من حشود على الحدود بين البلدين، فكتبت مقالاً بعنوان (لمصلحة مَنْ هذا التشاحن) وبدلاً من أن أذهب بنفسي إلى جريدة (اليمامة) أرسلت المقال إلى رئيس تحريرها عبر البريد مع رسالة رقيقة مني، وكَمْ كانت دهشتي في الأسبوع التالي عندما تصدّر مقالي الصفحة الأولى من جريدة (اليمامة).. وكان المقال يتحدث عن الوحدة العربية وضرورة التكاتف بين العرب حتى لا يذهبوا طُعْماً لعدوهم، واعتبرت ذلك المقال فتحاً عظيماً لي في دنيا الكتابة وغمرتني فرحة لا توصف.. ولم يصدق زملائي في مدرسة اليمامة الثانوية بالرياض أنني أصبحت من كتّاب الصفحة الأولى في صحيفة رصينة في حجم (اليمامة)!

* * *

obeikandl.com

•• كيف توفق بين الكتابة والتفوق الدراسي؟

• تنحصر المسألة في كيفية استثمار الوقت وتحديد أولوياته سواء خلال سنوات الدراسة أو بعد دخولي لجة العمل، وقد علمتني الأيام أن المتعة ليست في الاسترخاء، ولكن في العمل الشاق الذي يفضي إلى نتيجة ناجحة. ولذا، لا أحبذ الإجازة الطويلة، لأنها تتحول بعد حين إلى عبء من الرتابة الثقيلة المفرغة من الهدف والمعنى!

وِزْر الدكتوراه:

•• ما هو أبرز فشل في حياتك؟

• كان يراودني حلم بعد تجاوزي مرحلة الماجستير بتفوق أن أكمل مشوار الدكتوراه.. ولازلت أحياناً أشعر بأنني أخفقت في إنجاز تلك المهمة، لكنني عندما أستعرض في خاطري تضاريس التجربة العملية التي تلت الماجستير أرى أن قراري بالعدول عن مشوار الدكتوراه بلا معنى! الدكتوراه وِزْر على صاحبها، فهي بداية المسؤولية وليست نهايتها، وهي فرصة ينتقل فيها المرء من مرحلة النقل المعلوماتي إلى مرحلة العقل وتنمية المعلومة والإضافة إليها.

obeikandi.com

•• والدكم يرحمه الله هل أعاد النظر في مسألة التجارة، أي في مسار حياته العملية كالالتحاق بوظيفة مثلاً؟

كان يرحمه اللّه يرفض الارتباط الوظيفي، ولذا ظل متمسكاً بفكرة العمل الحر منذ نعومة أظفاره.. حتى عندما كان الحصار مضروباً على جدة في منطقة الرغامة في بداية عهد المؤسس الخالد، الملك عبد العزيز، طيب اللّه ثراه، كان والدي تاجراً يتعامل مع الجند ويبيع بعض لوازم اللباس، ثم دخل عالم الوظيفة الحكومية صدفةً.. وظل يتعامل معها على أنها أمر طارئ أو مؤقت، وقد حدث ذلك عندما زاره صديقه المرحوم الشيخ صالح إسلام عشية تعيينه رئيساً للتشريفات الملكية في عهد الملك سعود رحمه اللّه، وطلب منه أن يرافقه إلى الرياض لمساعدته في تكوين الإدارة الجديدة للتشريفات، وأقنعه بأن المهمة لن تستغرق أكثر من ستة أشهر، ثم يعود بعدها إلى ممارسة تجارته في جدة.. قَبِلَ سيدي الوالد العرض، وذهب إلى الرياض.. وبعد ستة أشهر عاد إلينا في جدة لنشدَّ الرحال جميعاً إلى الرياض.. ونستقر هناك معه في ظل الوظيفة (المؤقتة) التي لازمته سنيناً طويلة حتى لقي وجه ربه.

•• أول تفوق حدث في حياتك ماذا كان يعني لك وإلى أي مدى قادك إلى آفاق أخرى من التفوق في المراحل التالية؟

• أول لحظة تفوّق عشتها كانت عندما كتبت رسالة المرأة الباكية إلى زوجها المجنّد الغائب وتقاضيت عنها أربعة قروش مكافأة! وكذا عندما ذهبت إلى لبنان وخلال أربعة أشهر شعرت أنني أستطيع أن أفهم كل الظروف التي كانت حولي بعد أن تعلمت قدراً من الإنكليزية يمكنني من التنفس بين الأحياء، ولذلك أتحدث دائماً عن تجربة لبنان معتبراً إياها ميلادي الثاني، فقد دخلت لبنان باكياً وخرجت منها باكياً لسببين مختلفين. بكيت عند القدوم خوفاً من مضاعفات الصدمة الحضارية في لبنان.. وفراق الوطن والأهل.. وبكيت عند الخروج من لبنان حنيناً إلى المكان الذي ألفته عاماً كاملاً، وعرفت فيه من عرفت!

* * *

obeikandi.com

•• يبدو أن وراء كل حدث في حياتك قصة ولكن ماذا عن قصة زواجك؟

• لم تكن هناك قصة، بل هي القسمة والنصيب، لقد آليتُ على نفسي منذ البداية ألّا أقترن إلّا بسعودية وكان لي بفضل اللّه ما أردت، ومنذ أن دخلت فردوس الزواج مع مَنْ رشّحها لي القَدر الجميل، لم أندم قط والحمد للّه من قبل ومن بعد.

•• العمل والطموحات هل هي مسائل مشتركة بينك وبين زوجتك؟

• الحمد للّه فقد كانت زوجتي وما برحت تشد أزري وأشد أزرها وهي تقود حالياً عملاً ناجحاً في قطاع الإشراف التربوي. وتبقى زوجتي حفظها اللّه دوحةً أتفيّأ في ظلها من هجير الحياة!

* * *

ولادة ثالثة

•• الـولادة الثالثة في أمريكا كيف تم التجهيز لها؟

• اجتزت الثانوية العامة متفوقاً بترتيب (الأول) على مستوى المملكة وكان من المقرر أن أوفد إلى أمريكا للدراسة الجامعية، ثم شددت الرحال إلى أبها لزيارة سيدتي الوالدة، وهناك استطلعت رأيها حول فكرة الرحيل إلى أمريكا فجاء ردها غارقاً في الدمع، وتساءلتْ هي:

لماذا لا تكمل دراستك في جامعة الملك سعود بالرياض لتظل قريباً مني! والنتيجة النهائية واحدة، وظيفة حكومية بنفس الحقوق والمزايا! استسلمت لرغبة والدتي وعدلت عن فكرة السفر وأخبرت والدي في الرياض بذلك عبر برقية طويلة أوضحت فيها أسباب عدولي عن الدراسة في أمريكا. وبعد يومين فقط وصلني ردّ برقيّ عاصف من سيدي الوالد يسفّه فيه قراري، ويأمرني بالتوجّه حالاً إلى الرياض لإنهاء إجراءات الابتعاث إلى امريكا، وحملت البرقية وذهبت إلى سيدتي الوالدة شارحاً ما جاء فيها، وطرحت عليها حلاً وسطاً وهو أن أسافر إلى أمريكا لمدة عام فإن أنِستُ نجاحاً

obeikandi.com

وفلاحاً بقيت وإلاّ عدت إلى حضن الأم والوطن! باركت سيدتي الوالدة الفكرة وعدت إلى الرياض، ومنها إلى أمريكا خلال فترة لم تتجاوزْ أسبوعين! وكان من أمري هناك ما كان!

هناك في أمريكا بدأ مشوارُ العمر ـ يستطرد السدحان ـ لأكتشف أن قرار الرحيل إلى أمريكا كان صائباً جداً ليس لمجرد التحصيل العلمي، ولكن فيما تحقق لي من نقلة ذهنية واجتماعية وإنسانية أنعم بنتائجها حتى اليوم وكانت فترةً ثمينة جداً لتعميق إحساسي بالأرض وحبي للوطن، وانتمائي إليه!

obeikandi.com